العطف في آيات الإعراض في القرآن الكريم (دراسة نصية)

أ.م.د تراث حاكم مالك م.م فاطمة مشعل سالم

جامعة القادسية / كلية الآداب

الخلاصة :

يُعد الربط بين المفردات اللغوية ، وبين الجمل في النص الواحد ، أساسًا مهمًا من أسس تكوين التراكيب في اللغة العربية، وتبعًا لذلك ، تكتسب الروابط – بأنواعها– أهمية كبرى ، ومنها العطف الذي يتم بواسطة مجموعة من الحروف تؤدي وظيفة الربط بين أجزاء الكلام ، و يمثّل بذلك مؤشر لغوي لعملية الترابط السطحي لمستوى النص ، يتبعه ترابط معنوي ، بوصل المعاني بعضها ببعض ، وربط أجزاء الكلام ، وتحقيق الفائدة منه ؛ لذلك يُعد العطف أحد وسائل تماسك النص ؛ لأنه يعمل على تقوية الروابط بين متواليات الجمل في النص ، ويجعلها متماسكة ، فالعطف يحدد الطريقة التي ترتبط بها عناصر الجمل ، والفقرات بشكل منظّم داخل النص بحيث تصبح عناصر النص وحدة متماسكة .

الكلمات المفتاحية : (العطف، الإعراض، علم النص).

Conjunctive in Avoidance Verses in the Holy Quran:

A textual study

Asst. Prof. Dr. turath Hakim Malik Assist. Lec. Fatima Mishal Salem

Al-Qadisiyah University / College of Arts

Abstract:

Linking linguistic vocabulary and sentences in a single text is an important basis for forming structures in the Arabic language. Accordingly, links - of all kinds - gain their greatest importance, including the conjunction that is made by means of a group of letters that perform the function of linking parts of speech, and represents Thus, it is a linguistic indicator of the process of superficial interconnection at the text level, followed by moral interconnection, by connecting meanings to each other, linking parts of speech, and achieving benefit from it. Therefore, conjunction is one of the means of cohesion of the text. Because it works to strengthen the links between sequences of sentences in the text, and makes them coherent. Conjunction determines the way in which the elements of sentences and paragraphs are connected in an organized manner within the text so that the elements of the text become a cohesive unit.

Keywords: Conjunctive, Avoidance Verses, A textual study.

مدخل :

العطف من التوابع ، في الموروث العربي، ومعناه ((الاشتراكُ في تأثيرِ العامل. وأصلُه المَيْلُ، كأنّه أُميل به إلى حَيّزِ الأوّل، وقيل له نسقٌ لمُساواته الأوّل في الإعراب. يقال: ... كلامٌ نسقٌ، إذا كان على نظام واحد))[١]، فاطلق عليه (النسق) وهي تسمية الكوفيين ، و (الشِركة) وهي تسمية البصريين [٢]، وفي التسميتين إشارة إلى دلالة ربط الكلام ، و إنشاء علاقة ترابط بين أجزاء التركيب ، فلم يغفل علماء العربية ، والبلاغيون منهم خاصة، دواعي الاستعمال اللغوي لحروف العطف ، وكونها جانبًا مهمًا من جوانب دراسة التركيب العربي؛ ((لأنّ حُسن الربط بين المعاني بالأدوات أساس مهم من أسس إحكام النظم))[٣] ، وتنبهوا إلى وظائفها النحوية و الدلالية وكونها تمثل روابط شكلية لها معان دلالية في النصوص القرآنية و الشعرية و النثرية ، وقد اشار إلى ذلك الجرجاني في باب الوصل والفصل مقدمًا في ذلك العطف لإصالته في ذلك المضمار[٤] ، بقوله : ((ومعلومٌ أن فائدَةَ العطف في المُفردِ أن يُشْرِكَ الثاني في إعراب الأول، وأنه إذا أَشْرَكَه في إعرابه فقد أَشْرَكَه في حُكْمِ ذلك الإعرابِ))[٥]، وفي موضع آخر قال : ((هَذا فنٌّ من القَول خاصٌّ دقيقٌ ، إعلَمْ أنَّ مما يَقِلُّ نظَرُ الناسِ فيه من أَمْر (العطفِ) أنَّه قد يُؤْتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها، لكن تُعْطَفُ على جملةٍ بينها وبينَ هذه التي تُعْطفُ جملةٌ أو جملتانِ...))[٦]، فينبغي أنْ يُعرف المطلوبَ من هذا العطفِ والمغزى منه ؛ إذ أنّه مؤشر لغوي لعملية الترابط السطحي لمستوى النص ، يتبعه ترابط معنوي ، ويعتمد ذلك المؤشر في فهم علاقة كل مفردة وجملة مكونة للنص ، على ما يفهم من الجمل الأخرى عن طريق ((وصل المعاني بعضها ببعض ، وربط أجزاء الكلام ، وتحقيق الفائدة منه ؛ ولولاه لاحتاج المتكلم إلى ذكر أشياء يتعذر معها ائتلاف أجزاء القول ومعاملته كلّاً واحداً))[٧] .

وبالمعنى نفسه الذي قصده الجرجاني ، نجد دي بوجراند يذهب إلى أنّ ((الربط (العطف) يشير إلى العلاقات التي بين المساحات (مساحة المعلومات) ، أو بين الأشياء التي في هذه المساحات))[٨] ، فمهمة العطف قائمة على ربط الاجزاء المتباعدة في النص وتنظيمها ؛ لتجعلها أكثر اتساقًا.

و يرى الدرس اللغوي الحديث ، أن العطف من أدوات الاتساق النصي ، وهو ذو وظيفة دلالية بلاغية[٩] ، فالكلمات و الجمل ((لكي تُدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوعة تصل بين أجزاء

النص))[١٠] ، وهذا ما يقوم به العطف من ربط و توليد علاقات دلالية افقية على مستوى الجملة ، فَ ((العلاقة بين المعطوف ، و المعطوف عليه دلالية ، فالتماسك إذن، شكلي الأداة دلالي المضمون والمعنى ، لذلك لا تكتسب أداة العطف معناها العطفي إلا من خلال وقوعها في تركيب العطف))[١١] ، فيقع العطف بين المفردات ، والجمل ، والنصوص ، ولا ينحصر بجزء محدود من النص ، وهذا ما يميزه عن وسائل الاتساق النحوي الأخرى [١٢]، فيُعين بذلك على استمرارية النص ، وسلامة التماسك الخطي ، ويسهم في إنتاج الدلالة الكلية للنص .

ونموذجًا على ذلك في آيات الإعراض ، قوله تعالى : ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** ﴾ [١٣].

ورد في الآية الكريمة عطف بأنواع عدة ، هي عطف جملة فرعية على جملة فرعية تمثل في عطف الجملة (عملوا) ، على جملة (آمنوا) ، و كذلك عطف (يزيدهم من فضله) على جملة (فيوفهم اجورهم) .

أما النوع الآخر من العطف الوارد في الآية الكريمة ، فهو عطف جملة نصية ، على جملة نصية أخرى، متمثلًا في عطف التركيب الشرطي (**أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**) على التركيب (**أَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**) ، واستخلاصًا لما سبق ، يُلحظ أن الوحدة النصّية في الآية الكريمة قائمة على العطف ، فقد اتّكأ النص على حرف العطف (الواو) في تشكيل النص و تكوين عالمه ، فلم يُستعمل في الآية الكريمة غير (الواو) لتكون رابطًا بين الجمل الفرعية في ما بينها ، فضلًا عن الربط بين الجمل النصية ، وقد أفاد العطف ب (الواو) في إطار الوحدة النصية الواحدة ، الإحاطة بالمعاني والمضامين التي تؤدي إلى المُراد من النص (محور الآية) وهو الجزاء ، فكان للعطف بـ (الواو) وظيفة دلالية تمثلت في تنظيم الخطاب و تسويغه لدى المتلقي ، فقد ربط بين متضادين هما (المؤمنون ، و المعرضون) ، ونتيجة لذلك اختلف الجزاء ، فكان جزاء المؤمنين إعطائهم أجورهم وافيَة ، زائدةً على القدر المطلوب [١٤] ، أمّا المعرضون وهم الذين استنكفوا و استكبروا ، فكان جزاؤهم عذابًا اليما.

ويُزاد على الربط أنها افادت معنى التأكيد ؛ فمجيئ (الواو) عاطفةً (الاستكبار) على (الاستنكاف) مع اتحاد الحامل لتلك الصفات ، إنما يقتضي تحقيق الوصف المتقدم ، وتقريره ، فيكون الكلام متضمنًا لنوع من التأكيد مع مزيد التقرير[١٥] ، فالاستنكاف ، هو الامتناع أنَفَةً وحميَّة[١٦] ، و من يستنكف عن عبادة الله أي من يأنف عن عبادته ، وقد أكّد ثبوت صفة (الاستنكاف) ، هو عطف (الاستكبار) عليه، فالمستنكف أمتنع عن الإذعان لطاعة الله ، في صورة تدل على الامتناع تكبرًا و غرورًا [١٧]، فكان الجزاء عذابًا اليمًا ، وأكدَّ ذلك الجزاء تتمة الآية ﴿ **وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** ﴾ ، المعطوفة على جملة (فيعذبهم) ، ف (الواو) هنا فضلًا عن كونها رابطة ، هي مؤكدة ومقرّة لذلك الجزاء ، فلا يمكن التوهم وانكار العذاب الاليم ، فقد زاد على ذلك ، أنهم في ذلك العذاب لا يجدون لهم وليّ و لا نصير .

وبناءً على ذلك، لا يمكن حصر العطف عند حدود إشراك المعطوفات في حكم ما ، فهو يتعدى ذلك ، من خلال اسهامه في اتساق النص عبر ما يقدمه الربط للتتابعات الدلالية ضمن سياق معين من نتائج تؤدي إلى اكتمال النص .

و يزاد على العطف الذي يتخذ اتجاه خطي قائم على التشريك بين شيئين أو أكثر في حكمٍ ما ، وجود نوع آخر من العطف يتخذ اتجاه دائري يربط المعطوفات كلها بمركزٍ واحدٍ ، فينطلق من نقطة ليعود إليها بعد اكتمال الدائرة الدلالية ، وفي هذا النوع من العطف يتعذر إسقاط أي جزء ؛ لأنّ الإسقاط يؤدي إلى نقصان الدائرة الدلالية وعدم اكتمالها[١٨].

و مثال على ذلك في آيات الإعراض ، قوله تعالى :

﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ**

لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾[١٩].

تناولت الآيات الكريمة عرض لصفات خاصة بنخبة متميزة من المؤمنين وصِفوا بأنهم (عباد الرحمن) [٢٠]، وقد تضمن سياق الآيات معنى الإعراض ، إلا أنّه كان إعراضًا إيجابيًا ؛ فهو إعراضٌ عن المعرضين ، تجسّد في الآيتين الكريمتين ، وهما :

الآية الأولى ، قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** ﴾[٢١] ، فـ (سلامًا) هنا لم تأتِ بمعنى التحية ، وإنما هي للمتاركة ، فهي سلامُ مودعٌ معرضٌ ، لا سلام تحيةٍ [٢٢] .

و الآية الثانية ، قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾[٢٣] ، و (كرامًا) هنا جاءت للدلالة على الإعراض، و المعنى ((إذا مرّوا بأهل اللغو مروا معرضين عنهم مكرمين انفسهم عن التوقف عليهم و الخوض معهم)) [٢٤]، ومما أكّد هذا المعنى قوله تعالى في سورة (المؤمنون) : ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾[٢٥] ، وقوله تعالى في سورة القصص : ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** ﴾[٢٦]، وعليه فإن الإعراض عن المعرضين كان من صفات (عباد الرحمن)، فضلًا عن ما ذُكر من صفات أخرى في الآيات الكريمة المتعاطفة في النص المذكور ، و تمثل عبارة (عباد الرحمن) نواة النص ، والمحور الذي ترتبط به المتعاطفات المذكورة جميعها ؛ وما عزز هذا الارتباط ، هو إحالة الاسم الموصول (الذين) في المتعاطفات ، إحالة مباشرة إلى (عباد الرحمن) ، مع ما يثيره في النفس شوقًا إلى معرفة الصلة [٢٧] ، التي بدورها تفيد التخصيص [٢٨] ، وتكرار الاسم الموصول مع كل (واو) عاطفة ، فكان للعطف بـ (الواو) إمكانية الإحاطة ، و استقصاء صفات (عباد الرحمن) ، فجاءت هذه المتعاطفات لرسم صورة (عباد الرحمن) ، التي يريد الله عزَّ و جلّ أن يجعلها مثالًا، و قدوة يحتذي بها متلقو النص ، من خلال وصف أحوالهم ، وأن المقصود هو الالتزام بالصفات التي تولّدها الجمل الوصفية المذكورة ؛ لينالوا رضا الله سبحانه وتعالى ، والذي أبانه ترتيب النص بطريقة لا يمكن معها قطع أحد الصور من النص، أو أبدال جملة موضع جملة أخرى ؛ فكل جملة (الاسم الموصول وصلته) ذُكرت لتستقل بصورة خاصة ، وفي الوقت نفسه مكملة لصفة أخرى من صفات (عباد الرحمن) ، ولو قطعناها عن سياقها ولم نعطفها على سابقتها

لما تمّت الدائرة الدلالية ، و لكانت الصورة غير مكتملة ، فترتيب النصوص المتعاطفة لم يكن عشوائي ، و إنما قد رُتب ترتيبًا دلاليًا قائمًا على بيان إعراضهم عن المعرضين مرة ، وخضوعهم و طاعتهم لله عزَّ و جلّ مرة أخرى ، وعليه فأهمية العطف تكمن في الربط بين تلك التراكيب المتعاطفة ، التي وسعت من معاني عبارة (عباد الرحمن) والتي تمثل الطرف الاول في الجملة (المبتدأ) ، مما أدى إلى تباعده عن الطرف الثاني للجملة (الخبر) ، فساهم العطف في إبقاء النص متماسكًا دلاليًا في ذهن المتلقي ، من خلال تحفيز المتلقي لمعرفة (الخبر) ، فيبقى حاضرًا مستنفرًا ؛ لتلقّي ما يتمم الجملة في هذا النص ، وهو الجزاء المنتظر الذي كشفه (الخبر) المتأخر في قوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ ، فالأجر المذكور هو جزاء موعود للجامع لتلك الصفات ، وتعريضاً للكفرة بأضداده[٢٩].

ويلحظ البحث أنّ هندسة النص المذكور في بناء الصورة الدلالية ، كوحدة واحدة غير مجزئة يرجع إلى اختيار (الواو)عاطفة بين متعاطفات عدة ؛ إذ أنها أكثر حروف العطف إشراكًا في المعاني ، فليس في حروف العطف ما معناه الجمع إلا الواو[٣٠]، مع تحقق شرط أن يكون المعنى لجملة ما ((لفقًا لمعنى في الأخرى و مضامًا له)) [٣١] ، وهو ما جاء عليه ترتيب الآيات في النص السابق على الوجه الذي ذكره الله عزّ وجل في كتابه الكريم ، و الذي يدل على أن هذه الصفات هي أجزاء لصورة واحدة ، فقد أدى عطف الجمل التي تصف (عباد الرحمن)بعضها على بعض بـ (الواو) إمكانية الإحاطة و الاستقصاء وإكمال الدائرة الدلالية داخل تلك الوحدة النصية[٣٢]، التي يود النص الكريم تثبيتها في نفس المتلقي ؛ إذ أراد الخطاب القرآني بمجموع هذه الصفات إبراز صورة واحدة حاملة لتلك الصفات ، هي صورة النخبة من العباد ، الذين وصِفوا بـ (عباد الرحمن) .

ومن نماذج العطف الدائري الأخرى ، ما جاء بأداة العطف (بل) في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ** ﴾[٣٣].

و(بل) اداة عطف تفيد الإضراب ، ويكون معنى الإضراب في حال دخوله على الجملة، إما ابطاليًا ، أو انتقاليا[٣٤] ، و يُقصد بالإبطال هو أن تأتي بجملة تبطل معنى الجملة السابقة [٣٥] ، ومنه قوله تعالى : ﴿

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[٣٦]، ففي الآية الكريمة جاءت (بل) لتبين حال الكفار في تقليد اباءهم و ترك الإجابة إلى الإقرار بصدق النبي ﷺفي إبطال منهم للكلام الاول ، وثباتهم على حالة الكفر [٣٧].

أما الإضراب الانتقالي ، وهو موضوع الشاهد في الآية الكريمة ، فيُقصد به أن تترك الأول مع الإفادة منه إلى فائدة أخرى ، فهو انتقال من غرض إلى أخر ، دون إبطال الأول [٣٨]، وقد تضمنت الآية الكريمة تكرار أداة العطف (بل) في انتقالات متدرجة ومتصاعدة على النحو الآتي :

ومَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ← بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ← بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ← بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ.

وابتدأت هذه الانتقالات في الآية الكريمة بعد جواب الله عزّ وجلّ لمن أنكر وجود البعث ، وإلى من زعم . و هُم الكهّان . أنهم على علمٍ بيوم الحساب ووقت حدوثه ، فكان الجواب في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ ، فجاء نفي العلم بالغيب عام لإبطال ما يمكن أن يزعم من عكس ذلك فهو علمٌ خاص بالله سبحانه وتعالى ، وقد سلكت الآية معنى العموم في قوله تعالى **(مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** ؛ لأنه أكثر فائدة ؛ إذ يضمُّ المخلوقات كلها لانحصار عوالم الموجودات في السموات و الأرض[٣٩] ، ومنهم الأنسان على اختلاف عقيدته ، مؤمنًا كان أو كافر ، ليأتي بعد ذلك الجواب ، العطف بـ (الواو) الذي يفضي إلى نتيجة أولى هي الإخبار عن المشركين بأنهم (ما يشعرون أيّان يبعثون) فقد عطفت على جملة مقول القول (لا يعلم ...)[٤٠] ، وهو ارتقاء دلالي من حالة عدم العلم و المعرفة بالغيب إلى حالة عدم الشعور ، وجيء بـ (بل) لتفيد الإضراب الانتقالي إلى ما هو أغرب وأشد ارتقاء، في قوله تعالى **(بل ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ)** ، فأصل أدّاركَ هو (دَرَكَ ... وتدارك القوم : لَحِقَ آخرهم أَوَّلهم))[٤١]، وأما **(ادَّارَكَ)** فهي على أُدْغِام التَّاءَ فِي الدَّالِ فَسُكِّنَتْ لذلك ، وَاجْتُلِبَتْ هَمْزَةُ الْوَصْل للنطق بالساكن[٤٢] ، وعلى كثرة الآراء في تفسير معنى (ادّارك) في سياق الآية المذكورة ، فهي تفضي جميعها إلى أن المشركين ، قد صرفوا ما عندهم من العلم حتى نفد ، فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة ، فتلقوا علمهم على غير بصيرةٍ ، ولا نظر[٤٣] فهبط بهم

من الأعلى إلى الأسفل ،على حد قوله تعالى: ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** ﴾[٤٤] .

أما (بل) الثانية في قوله تعالى : ﴿ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا** ﴾ فقد أفادت الاضراب الانتقالي من حالة اضطراب علمهم في الآخرة إلى الشك في أمر وقوعها ، وجاءت الجملة اسمية للدلالة على الثبوت ، ثبوت حالهم في الشك في اليوم الآخر ، لتأتي (بل) الثالثة في قوله تعالى :﴿ **بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ** ﴾ وهي أشد وقعًا ؛ نتيجة الانتقال من الشك إلى العمّي فهم في عمى منها وهو تعبير مجازي ؛ لذا جاء القول بـ(منها عمون) و لم يقل (عنها عمون) لأنه ليس المراد ذكر عماهم عن النظر إليها[٤٥]، فالمقصود هو عمى البصيرة ، و ليس عمى العين ؛فالمراد إثبات ضلالهم ، فشبّه ضلالهم عن الآخرة بالعمى في عدم الاهتداء للإيمان به ، وهو آخر درجات الارتقاء الدلالي في إثبات ضلالهم في الآية الكريمة [٤٦] ،وقد أسهم في إثبات تلك الدلالة صياغة الجمل الاسمية كما في قوله : (بل هم في شك منها) ، و (بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) للدلالة على الثبات في جهلهم .

ويلحظ البحث أنّ القرآن الكريم قد أستثمر حرف العطف (بل) وحشده في الآية الكريمة ليصوّر لنا المشهد النفسي لهؤلاء المعرضين، فجاء ترتيب هذه الاضرابات وفاقًا لتنزيل أحوالهم؛ فوصفوا أولاً بأنهم لا يشعرون بوقت البعث ثم بأنهم تلقفوا في شأن الآخرة التي البعث من شؤونها ، علماً مضطربًا أو جهلًا ، فتخبطوا بين شك ومرية ، فأعقبهم عمى وضلالة [٤٧] ، بحيث إن هذه الانتقالات متدرجة تصاعديًا في طريقة لا يمكن معها حذف أي من الجمل المتتالية ، أو التغيير في موضعها ؛ لأن في ذلك انتزاع لها من السياق ، وبالتالي لا تؤدي إلى ما يصبو إليه النص ، فيمنع ترابط النص ، واتساقه ، و اكتمال الدائرة الدلالية. ويبدو للبحث أن استعمال أسلوب الإضراب كان الغرض منه إلفات القارئ بقوة للتنبيه[٤٨] على إعراض و إنكار المعرضين وإشكالهم وشكهم في الآخرة بسؤالهم عن زمان تحققها ، وجهلهم هذا وشكهم ((ليس منشؤهما أنّهم لا يملكون دليلا أو دلائل كافية على الآخرة، بل الأدلة متوفرة إلاّ أن أعينهم عميٌ عنها))[٤٩].

وللعطف دور آخر فضلًا عن ما ذُكر ، فللعطف دورٌ دلاليٌ مهمٌ في تبئير بعض عناصر النص ، وتحويلها إلى محاور اساسية ، يدور عليها النص ، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[٥٠] .

ففي الآية الكريمة ورد لفظ الجلالة (الله) وقد مثّل موضعه بؤرة مركزية في النص ، ارتبطت به جملٍ عدة ، على النحو الآتي :

(الله) ←أخذ سمعكم ، و ابصاركم ، وختم على قلوبكم

فبواسطة العطف ، ربط بين الجوارح (السمع ، و البصر ، و الادراك) فالمراد بـ (قلوبكم) في كلام العرب هو ، العقول ؛ لأن بها إدراك المعقولات[٥١] ، فعمل العطف بـ (الواو) على تبئير لفظ الجلالة (الله) في النص . وفضلًا عن الربط التركيبي بواسطة العطف ، تشترك الجوارح المذكورة في كونها من نعم الله على الانسان ، وما يزيد ذلك الربط قوةً ، أن المحال إليه واحد في الجمل المتعاطفة ، فـ (الله) هو المنعم بها على الانسان ، وهو عزّ وجلّ السالب لها من الانسان ؛ لذلك أُختيرت مفردة (أخذ) في الآية الكريمة ؛ للدلالة على أخذ ما أعطي مسبقًا [٥٢] .

وتمثل هذه الجوارح مراكز الفهم و الشعور و العقل لدى الأنسان ؛ إذ لا يمكن الاستغناء عن أحد هذه التراكيب دون سائرها ؛ فالجوارح المذكورة هي المسؤولة عن هداية الأنسان ، وإذ ما سلبها الله جلّ وعلا ، فلا رادّ لها ، ويستشف ذلك من الاستفهام التقريري في قوله تعالى (**مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ**)، ويُقصد من هذا الاستفهام إلجاء السامعين إلى النظر في جوابه ، و إلقاء الحجة عليهم ؛ إذ أنّه لا إله غير الله يأتيهم بذلكَ ، وهنا يتجه الموضوع مرة أخرى باتجاه الذات الإلهية ، وعليه فإن لفظ الجلالة (الله) هو المحور الرئيسي، والكلمة المركزية التي يدور حولها النص ، فقد مثّل لفظ الجلالة (الله) بؤرة للعطاء و الأخذ .

وفي مقابل تلك الحجج الملقاة على الكافرين ، ما كان منهم إلا الإعراض ، والذين وصِفوا في الآية الكريمة بأنهم (يصدفون) ، والصدف بمعنى الميل فـ ((صَدَفَ عن الشيء، إذا مال عنهُ و ولّى ذاهبًا))[٥٣]، وصدف عني بمعنى أعرض[٥٤]، وهذا الإعراض نتيجة للبعد المعنوي بين المشركين و الله عزّو جلّ ، وهو ما نبّه عليه استعمال أداة العطف (ثمَّ) في الآية الكريمة ، و (ثُمّ) أصل دلالتها هي تراخي الحدوث بين المتعاطفين [٥٥]، فوجودها هنا يُشعر أن عرض الأدلة على وحدانية الله وصدق الرسول قد أستغرق وقتًا ليأتي

بعد ذلك إعراضهم ، و يُزاد على دلالة التراخي ، خروج (ثمَّ) في هذا الموضع إلى دلالة فرعية هي دلالة البعد المعنوي بين المتعاطفين[٥٦]، وهو موضع لا يصلح فيه استعمال (الواو) كما هو الحال في تعاقب (الواو) أول الآية الذي ينبأ عن وجود الشراكة بين المتعاطفات ؛ فقد جيء بـ (ثُمّ) ليبرز ما بين المتعاطفين من تفاوت و تباين و استبعاد ؛ للتناقض بينهم وعدم إمكانية اجتماع المعطوف (المعرضين) و المشار لهم بجملة(هم يصدفون) ، و المعطوف عليه و المشار إليه بجملة (نصرّف و ضميرها المستتر نحن) .

وفضلًا عن ذلك فإنّ دلالة (ثُمّ) في الآية الكريمة، قد أدت غرض آخر غير الاستبعاد ، هو غرض التعجب ، و ذلك ((بإبراز التناقض بين موقفين غير متناسبين مما يبعث على العجب في نفس المتلقي))[٥٧] ، فالتعجب هنا يأتي من إعراض المشركين مع قوة الادلة الموجودة ، التي أشارت إليها الآية في قوله تعالى : ﴿**انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ** ﴾ ، فقد أنزل فعل الأمر (انظر) الأمر المعقول منزلة الأمر المُشاهد دلالةً على غمرهم بالأدلة على وحدانية الله وصدق رسوله ، وما أكّد معنى التعجب ، ورود اسم الاستفهام (كيف) وهو اسم يخرج إلى معنى التعجب ، وأيضًا إلى معنى الاستبعاد [٥٨] .

ويبدو للبحث أن سبب اقتران دلالة التراخي على التعجب بدلالة الاستبعاد ، إن الذي يُتعجب منه من الأحداث هو ما كان غريبًا في بابه و غير ملائمٍ لما صاحبهُ أو سبقه من الأحداث ، وهذا كله عائد إلى البعد المعنوي بين المتعاطفين [٥٩]، واستمرار هذا البعد باستمرار المكابرة و الإعراض ، الذي كشف عن ذلك الاستمرار مجيء فعل الإعراض (يصدفون) بصيغة فعل المضارع التي تحمل دلالة التجدد و الاستمرار ، وهذا الاستمرار مع ما موجود من الآيات في الآفاق و الأنفس ، واختلاف أنواعها الذي عُبّر عنه بـ (نُصَرِّفُ الآيات) ، من مشاهدات في السماوات و الأرض ، ومن دلائل في نفوس الناس ، مع تفاوتها للاقتراب من تناول الأفهام ، عامها وخاصها ، ترهيبًا مرة ، وترغيبًا مرة أخرى ، يقتضي أن تكون سببًا في غاية الإقبال ، فمن المستبعد في المعتاد و المعقول أن يترتب على ذلك منتهى الإعراض [٦٠].

واستنادًا لما سبق ، يتحصّل من ذلك أن للعطف تقنية في ربط النص من خلال شبكة من العلاقات تراعي دلالة حرف العطف في تركيب معين ، ودلالة هذا التركيب في سياق ما ، مما يجعل من النص وحدة متماسكة ، وعليه ، فإن العطف يستخدم في النصوص لمعان دلالية كثيرة وفاقًا للعلاقات الموجودة بين الجمل

على مستوى النص ، ((وهذا الربط يتم وفق أدوات نحوية لها معان محدودة ، والسياق قد يفرض أداة ربط محددة)) [٦١] ، توافق المعنى الدلالي المطلوب ، على نحو النماذج المذكورة سلفًا ، فكان لـ (الواو) معنى الإحاطة و الاستقصاء مرة ، و افادت مرة أخرى معنى التأكيد ، واستعملت مرة أخرى في تبئير بعض عناصر النص و جعلها محورًا أساسيًا مؤثرًا في سياق النص الكلي .

وكان لحرف العطف (بل) فضلًا عن معنى الإضراب ، دورٌ مهمٌ في عملية الترقّي الدلالي للنص ، وللعطف بـ (ثُمّ) أكثر من دلالة ، ففضلًا عن أصل دلالتها وهو التراخي ، خرجت في النص المذكور إلى دلالات فرعية هي التعجب و الاستبعاد .

الخاتمة :

انتهى البحث إلى نتائج ، أهمها :

١. إن للعطف تقنية في ربط النص من خلال شبكة من العلاقات تراعي فيها دلالة حرف العطف في تركيب معين ، ودلالة هذا التركيب في سياق ما ، مما يجعل من النص وحدة متماسكة.

٢. للعطف مهمة تتجاوز العطف بين المفردات ، والجمل ؛ إذ يقوم العطف بالربط بين الأجزاء المتباعدة في النص وتنظيمها ؛ لتجعلها أكثر اتساقًا ، ويُعين بذلك على استمرارية النص ، وسلامة التماسك الخطي ، ومن ثم إنتاج الدلالة الكلية للنص .

٣. للعطف دورٌ دلاليٌ مهمٌ ، يكمن في تبئير بعض عناصر النص ، وتحويلها إلى محاور اساسية ، يدور عليها النص .

٤. تُعد أداة الربط (الواو) من الروابط المهمة ، التي سجلّت حضورًا فعّالًا في آيات الإعراض ، لما لها من إمكانية الإحاطة بالمعاني و استقصاءها ، و إفادتها معنى التأكيد ، ويزاد على ذلك أنها تعمل على تبئير بعض عناصر النص و جعلها محورًا أساسيًا مؤثرًا في سياق النص الكلي .

الهوامش:

[١] ينظر : شرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٢٧٦)

[٢] ينظر : همع الهوامع : السيوطي : ٣/ ١٨٥.

[٣] اساليب العطف في القرآن الكريم : الدكتور مصطفى حميدة :٣.

[٤] ينظر الفصل و الوصل في القرآن الكريم :

[٥] دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني : ٢٢٣.

[٦]نفسه ٢٤٤.

[٧] نحو النص : عثمان أبو زنيد :١٣٢.

[٨] النص والخطاب والإجراء : ٣٤٦ .

[٩] ينظر: لغة الخطاب و علم النص : صلاح فضل : ٢١٦.

[١٠] لسانيات النص : محمد خطابي :٢٣.

[١١] علم اللغة النصي بين النظرية و التطبيق : صبحي إبراهيم الفقي : ٢٤٩/١.

[١٢] ينظر لسانيات النص :٢٢.

[١٣] النساء : ١٧٣.

[١٤] ينظر : التحرير و التنوير : ٦١/٦.

[١٥]ينظر: بدائع الفوائد :١٩١/١.

[١٦] ينظر : لسان العرب : ١٥/٩.

[١٧] ينظر : تفسير الأمثل : ٥٥٨/٣.

[١٨] ينظر: التماسك النصي (دراسة تطبيقية في نهج البلاغة) اطروحة دكتوراه / ٢٠٠٥: عيسى جاسم الوداعي : ٩٠.

[١٩] الفرقان ٧٥،٧٤،٧٣،٧٢،٧١،٧٠،٦٩،٦٨،٦٧،٦٦،٦٥،٦٤،٦٣.

[٢٠] ينظر : تفسير الأمثل : ٣١٩/١١.

[٢١] الفرقان :٦٣.

[٢٢] ينظر: تفسير البيضاوي : ١٣١/٤، و البحر المحيط : ١٢٦/٨.

[٢٣] الفرقان :٧٢.

[٢٤] البحر المحيط : ١٣٢/٨.

[٢٥] المؤمنون : ٣.

[٢٦] القصص: ٥٥

[٢٧] ينظر : التعبير القرآني و الدلالة النفسية : ٢٨٧.

[٢٨] ينظر :شرح الكافية (الرضي) : ٩٩٠/١.

[٢٩] ينظر: تفسير البيضاوي : ١٣٠/٤.

[٣٠] الغرة في شرح اللمع : ٨٨٨.

[٣١] معاني النحو : ١٩٤/٣.

[٣٢] ينظر: التماسك النصي (دراسة تطبيقية في نهج البلاغة) :٩٦.

[٣٣] النمل :٦٥، ٦٦.

[٣٤] ينظر : معاني النحو :٢٢٣/٣.

[٣٥] [٣٥] ينظر : الوجوه و النظائر : لأبي هلال العسكري : ١٣٨ ، معاني النحو :٢٢٣/٣.

[٣٦] البقرة :١٧٠.

[٣٧] ينظر : تفسير مجمع البيان ، الطبرسي : ١ / ٤٢٥، ٤٢٦.

[٣٨] ينظر : الوجوه و النظائر : لأبي هلال العسكري : ١٣٨ ، معاني النحو :٢٢٣/٣.

[٣٩] ينظر : التحرير و التنوير : ١٩/٢٠.

[٤٠] ينظر : الجدول في الإعراب : ٢٠١/٢٠.

[٤١] مقاييس اللغة : ٢٦٩/٢.

[٤٢] ينظر : البحر المحيط : ٢٦١/٨.

[٤٣] ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٩٨/١٥.

[٤٤] النجم : ٢٩ ،٣٠.

[٤٥] ينظر : الموسوعة القرآنية خصائص السور :جعفر شرف الدين : ٦/ ٢٠٥.

[٤٦] ينظر : التحرير والتنوير: ٢٠ / ص ٢٢.

[٤٧] ينظر : التحرير والتنوير: ٢٠ / ص ٢٣.

[٤٨] ينظر : الإضراب و الاستدراك في القران الكريم ، بحث منشور في مجلة القادسية للعلوم الإنسانية ، المجلد الحادي عشر / العددان ١-٢/٢٠٠٨ ، د. تراث حاكم الزيادي : ٥٨.

[٤٩] تفسير الأمثل : ١١٨/١٢.

[٥٠] الأنعام :٤٦.

[٥١] ينظر : التحرير و التنوير : ٢٣٤/٧.

[٥٢] ينظر : التحرير و التنوير : ٢٣٣/٧، ٢٣٤.

[٥٣] مقاييس اللغة :٣٣٨/٣.

[٥٤] ينظر : لسان العرب :١٨٧/٩.

[٥٥] ينظر : شرح الكافية (الرضي) : ٤/ ٣٨٩.

[٥٦] ينظر : اساليب العطف في القرآن الكريم : الدكتور مصطفى حميدة : ١٦١.

[٥٧] اساليب العطف في القرآن الكريم : ١٧٣.

[٥٨] ينظر : معاني النحو :٤/ ٢٢٢ ، ٢٢٣.

[٥٩] ينظر : المصاحبة والتعقيب والتراخي في القرآن الكريم دراسة دلالية : ٢٧٦.

[٦٠] ينظر : تفسير المنار : ٣٤٩/٧ ، وتفسير التحرير و التنوير : ٢٣٥/٧، ٢٣٦.

[٦١] أثر العطف في التماسك النصي في ديوان على صهوة الماء ، د. خليل حماد ، ود. حسين العابدي ، بحث منشور في مجلة الجامعة الاسلامية للبحوث الانسانية ، العدد٢ لسنة ٢٠١٢ : ٣٣٩.

المصادر و المراجع:

القرآن الكريم

- شرح المفصل للزمخشري ،يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت ٦٤٣هـ) ،قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ،ط ١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.
- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، ط٣، مطبعة المدني، شركة القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- اساليب العطف في القرآن الكريم : الدكتور مصطفى حميدة ، مكتبة لبنان ناشرون .
- النص و الخطاب و الإجراء ،روبرت دي بوجراند ،ترجمة الدكتور تمام حسّان ،عالم الكتب،ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٧م.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، د. ط.، عالم المعرفة، ١٩٩٢م.
- نحو النص (إطار نظري ودراسات تطبيقية)، عثمان أبو زنيد، ط١، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- علم اللغة النصيّ (دراسة تطبيقية على السور المكية)، د. صبحي إبراهيم الفقي، ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) ، الدار التونسية للنشر – تونس ، ١٩٨٤ هـ .
- الامثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل : الشَيخ نَاصِر مَكارم الشِيرازي ، مؤسسة البعثة ، بيروت ط١، ١٩٩٢.
- البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) ، تح: صدقي محمد جميل ، دار الفكر – بيروت ، ١٤٢٠ هـ .
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ) ، دار صادر – بيروت ،ط٣ ، ١٤١٤ هـ .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) ،تح : محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ،ط١ ، ١٤١٨ هـ .

- التعبير القرآني و الدلالة النفسية ، الدكتور عبد الله محمد الجيوسي ، دار الغوثاني للدراسات الإسلامية ، ط١، ٢٠٠٦.
- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧م.
- الإضراب و الاستدراك في القران الكريم ، بحث منشور في مجلة القادسية للعلوم الإنسانية ، المجلد الحادي عشر / العددان ١-٢/٢٠٠٨ ، د. تراث حاكم الزيادي.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح: عبد السلام محمد هارون، د.ط.، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- الموسوعة القرآنية (خصائص السور) ،جعفر شرف الدين ،تح: عبد العزيز بن عثمان التويجزي ، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت ،ط١ ، ١٤٢٠ هـ .
- شرح الرّضيّ على الكافية، محمد بن الحسن الرّضيّ الأستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، تح: يوسف حسن عمر، ط٢، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٩٩٦.
- المصاحبة والتعقيب والتراخي في القرآن الكريم (دراسة دلالية) ، محمد كريم جبار (رسالة ماجستير) ، جامعة القادسية ، ٢٠١٢.
- الوجوه والنظائر ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ) ، تح: محمد عثمان ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ،ط ١ ، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م.
- الجدول في إعراب القرآن الكريم ، محمود بن عبد الرحيم صافي (ت ١٣٧٦هـ) ،: دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، بيروت ،ط٤ ، ١٤١٨ هـ .
- أثر العطف في التماسك النصي في ديوان على صهوة الماء ، د. خليل حماد ، ود. حسين العابدي ، بحث منشور في مجلة الجامعة الاسلامية للبحوث الانسانية ، العدد٢ لسنة ٢٠١٢ .
- تفسير مجمع البيان ، أبي على الفضل بن الحسن الطبرسي ، المجمع العالمي لأهل البيت.